الفصل السادس
الصورة الشعرية

أ- الصورة قيمتها ومفهومها.

ب- الصورة عند ريس الفيل بين التقليد ومحاولات التجديد.

ج - ملامح الصورة.

د - وسائل تشكيل الصورة:

التشخيص — تراسل الحواس — مزج المتناقضات.

ه - الرمز.

و - الرمز الأسطوري أو الحكائي.

ز - توظيف الموروث:

الاخذ من القرآن الكريم — توظيف التراث الشعبي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الصورة الشعرية

الصورة قيمتها ومفهومها :

قبل الاستدراج إلي مفهوم الصورة الشعرية وأهميتها في العمل الفني وهو ما كان ينبغي أن أبدأ به هنا ، سأتوقف قليلا عند هذا التركيب وهو " الصورة الشعرية " ، وأول ما نلاحظه كما يقول الدكتور محمد حسن عبد الله أننا " سنجد أنفسنا إزاء كلمتين ، وليس كلمة واحدة ، الصورة الشعرية ، وهذا يعني ضمنا أن هناك صوراً أخري لنقل باختصار : إن الصورة تعبر عن الشكل والشعرية تشير إلي المستوي ، ويمكن للشكل أن يكون تشبيها أو استعارة أو كناية ، فتكون الصورة بيانية نسبة إلي علم البيان الذي حدد الهدف من استخدام هذه الأنماط الثلاثة ويمكن للوصف أن يكون صورة علي غير طريقة الاستعارة أو التشبيه أو الكناية وهنا نستخدم مصطلح "الصورة الفنية " .

وليست كل صورة بيانية أو فنية شعرية بالضرورة ، إن كثيراً من التشبيهات والاستعارات قد فقدت شاعريتها واستهلكت وأصبحت عاجزة عن التوصيل والصحفي الناجح يمكن أن يقدم وصفا فنيا دقيقا لاجتماع في محفل أو لحادث علي الطريق ، دون أن تكون الدقة أو الطرافة مبرراً لاعتبار ما كتبه صورة شعرية" .[1] ثم يشير إلي دور الشاعر وقدرته علي إبداع صور ليست في متناول كل البشر فهو بما أوتي من موهبة ، وبما حباه الله به من ملكة خاصة قادر علي إبراز عاطفته بإسلوب يجمع بين الإثارة والتشويق يقول : "إن الشاعر يستخدم حواسه التي نستخدم ، ويجمع أجزاء صوره من العالم الذي نشاهد ونسمع ونحس ...

---

١ - انظر الصورة الشعرية عند محمو حسن إسماعيل ،مقال للدكتور محمد حسن عبد الله نقلا عن كتاب مؤتمر محمود حسن إسماعيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة ،١٩٩٦، ص ٤٧ .

الخ ولكن وجه الامتياز في صياغته أن يقدم إليك هذه الجزئيات في علاقات جديدة ليست هي الواقع تماما ، وليست بديلا للواقع ، ولكنها تعبير عنه ، متعالية عليه ولكنها قادرة علي الإيحاء به من خلال عملية تنظيمية مبتكرة ، وطاقة انفعاليه ممسوقة وعاطفة إنسانية تسري في أوصال الكلمات" . (١)

وقد لاقت الصورة الشعرية اهتماما كبيرا من النقاد والدارسين في العصر الحديث نظرا لأهميتها ، فأفردوا لها الأبحاث والمقالات ، وخصوها بمزيد من البحث والدرس . (٢)

ولكن ما الذي جعل للصورة هذه المنزلة وتلك المكانة حتي أصبحت سمة من سمات الشعر الجيد ، وسرا من أسرار العبقرية ، وخاصية من خصائص الشعراء المبدعين ؟ يجيب عن ذلك الدكتور محمد حسن عبد الله قائلا : "إن الاتجاهات تجئ وتذهب ، والأساليب تتغير وأنماط الأوزان تتبدل ، بل إن الموضوعات الأساسية قد تتغير بدرجة تجعلنا لا نكاد نتعرف عليها ، ومع ذلك فالصورة هي الشئ الثابت في الشعر كله" . (٣)

ومع أن الصورة تعد عنصرا فنيا من العناصر التي يعتمد علها الشاعر في التعبير عن تجربته كالألفاظ والموسيقي ، حيث لا يمكن إغفال دورهما أو التقليل من أهميتهما في العمل الفني ، إلا أن الصورة تعد سمة بارزة من سمات الإسلوب الأدبي ولاسيما الشعر ، وهذا ما جعل الدكتور علي صبح يحتفي بالصورة ويقول

---

١ - المصدر السابق ، ص ٤٧ .

٢ - انظر في ذلك : الصورة الأدبية للدكتور رمصطفي ناصف ، الصورة الفنية في التراث النقدي للدكتور جابر عصفور ، والصورة الفنية في الشعر العربي حتي نهاية القرن الثاني الهجري للدكتور علي البطل، والبناء الفني للصورة الأدبية للدكتور علي صبح .

٣- انظر مقال " الصورة الشعرية عند محمود حسن إسماعيل للدكتور محمد حسن عبد الله ، ص ٤٠ .

عنها إنها " أصدق تعبير عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس ، وأدق وسيلة تنقل ما فيها إلي الغير بأمانة وقوة ، وأجود موصل إلي الآخرين في سرعة وإيجاز ووفرة ، والصورة أجمل وأنضر طريقة في شد العقل والخيال إليها ، وربط الإحساس بها ، وتجاوب المشاعر لها ، وإحياء العاطفة وسحر النفس" . (١)

ويقول أيضاً عنها إنها "أقدر الوسائل علي نقل الأفكار العميقة والمشاعر الكثيفة في أوفر وقت وأوجز عبارة ، وأضيق حيز" . (٢)

والشعر باعتباره نوعاً أدبياً يتخذ من الكلمة أداة له ، فهو يختلف عن الأنواع الأدبية الأخري كالقصة والمسرحية باعتماد الصورة فيه علي التركيز والتكثيف ومن ثم فلغة الشعر تختلف عن اللغة العامة التي قد تجئ قاصرة عن التعبير عما في النفس ، لذلك كان "التعبير بالصورة لا يخضع للمنطق نفسه الذي تخضع له اللغة التقريرية ، ولهذا تصبح الصورة الشعرية ذات منزلة منفردة ، وذات رؤية جمالية من نوع خاص تراعي المفردات في علاقتها ، والمفردات في امتدادتها الدلالية ، وفارق بين التعبير التقريري المباشر ، والتعبير بالصورة يتمثل في تجاوز الشاعر إطار الدلالة المعجمية وفي استعانته بالرمز واتكائه علي الإيقاع والتشكيل الصوتي" . (٣)

وبعد هذا العرض لأهمية الصورة ومنزلتها ودورها في العمل الفني نخلص إلي مفهومها ، فالصورة كما يري الدكتور عبد القادر القط هي "الشكل الفني الذي

---

١ - د.علي صبح:البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر:المكتبه الأزهرية للتراث،الطبعة الثانية١٩٩٦،ص٣٣

٢ - المصدر السابق ، ص ٣٤ .

٣ - د.يوسف نوفل:الصورة الشعرية واستيحاء الألوان،دار النهضه العربية،الطبعة الأولي ١٩٨٥ ، ص ٢٢.

تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربه الشعرية الكاملة في القصيدة" . (١)

والصورة الشعرية عند يس الفيل مرت بمراحل تغيرت خلالها تبعاً لظروف التغير والتطور التي مر بها الشاعر وما اكتسبه من نضج فكري وفني وشعوري .

الصورة عند يس الفيل بين التقليد ومحاولات التجديد :

التزم يس الفيل بالصورة الشعرية الموروثة ، فجاءت محاولاته الأولي مشتملة علي وسائل التصوير التقليدي من تشبيه واستعارة وكناية .

ومن الطبيعي أن يبدأ شاعرنا حياته الشعرية معتمدا علي العناصر التراثية في تشكيل صوره يقول : (١)

وإن بكت فدموعي من لظي هطلت ... كالسيل، منه جفون العين تشتعل

وقوله : (٢)

ونحن عرب مضي موسي الكليم بنا ... والموج طود فشق الطود واخترقا

ويقول مصوراً المرأة العربية التي كانت تطالب بحقوقها السياسية والاجتماعية كالمرأة المصرية : (٣)

الزهرة الحيري غدت لجموحكم ... قدرا تمرد ، ضج كالإعصار

رحلت إلي بلد مضي بجموعه ... لا فرق بين فتي وذات سوار

وعند التأمل في هذه الصور نري أنها ممعنة في التقليدية كالتشبيه الذي ورد في البيتين الأول والثاني حيث الدموع تهطل كالسيل ، والموج يبدو كالطود واستعارة الزهرة للمرأة والكناية عنها بقوله "ذات سوار" .

---

١ - د.عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر،مكتبه الشباب، القاهرة١٩٧٨،ص ٤٥٣

ومع وجود مثل هذه الصور التي تدل علي أن الشاعر يسير في ركاب التقليد والمحاكاة ، وجدت له بعض الصور الأخري التي أضفي عليها شيئا من الجدة ، فجاء شعره جامعاً بين الاتباع والتجديد،مثال ذلك قصيدة "ذكريات من القرية"وهي أول عمل شعري نشر له عام ١٩٦٠، يقول:(٤)

وعند الأصيل أري قريتي ... كغيد خطرن علي الربوة

وبين يديها جمال المساء ... طروبا يغرد في نشوة

وكرم النخيل علي حجرها ... يصلي مع الريح في غبطة

وساقية لا تمل الحديث ... مع الزرع ، تسقيه من خمرة

أراها فترقص لي ذكريات ... نقشت علي صدرها قبلتي

فقد خلع على المساء والنخيل والساقية صفات الأحياء مما جعلها تفيض بالحيوية وتنبض بالحركة .

وفى عام ١٩٦٤م يكتب الشاعر قصيدة بعنوان "شمشون " محاولاً الخروج من دائرة التقليد التى بدأ بها ، فجاءت محاولته هذه تحمل آثارا سريالية كما فى قوله : فى ثوب الصخر المجدول ، والزورق مفتول الساعد ، تتشوق للورد الأخضر وفى العام نفسه كتب قصيدة أثارت جدلا بين رفاقه عندما قرأها عليهم لأول مرة لما تحتوى عليه من صور قد تبدو متناقضة ، هذه القصيدة هى "براعم المحال " ويبدو أن الشاعر يريد أن يضعنا فى مفارقة منذ البداية ، فالعنوان يتكون من مركب إضافى يتمثل فى كلمتى " براعم " و"المحال " ، ومن المعروف أن المحال شئ تجريدى ليس له براعم ، ولكن الشاعر أراد أن يجسمه لنا فأضافه الى " براعم " وكأنه يريد أن يقول إن المحال من الممكن أن يورق وتكون له براعم ، ولتكون

"البراعم" رمزا للأمل المشرق من قلب اليأس " المحال " ، وقد امتلأت القصيدة بالصور التى تحمل طابع التجديد من غير أن يدخل بنا فى تهويمات خيالية عابثة يقول : (١)

رحلتُ
أسأل السأم ،
أجرد الضباب من ثيابه ،
أعانق العذاب
فى غيابه
أصابعى تشكل المحال
وتزرع السؤال فوق برعم يموت

ويس الفيل عندما يجدد فى صوره لا ينفصل عن التراث ، ولا يقف استخدامه للتراث عند كونه مجرد صور أو مفردات . ولكنه طريقة فى الإحساس بالأشياء ويبدو هذا واضحا فى قصيدته " قلبى والجراح " التى يقول فى مطلعها:(١)

ما للجراح ... لها فى القلب متكأ ؟ كأنما القلب نبع والحشا كلأ
لم يندمل واحد ... إلا ويبرز لى جيش على مهجتى يعدو وينكفئ
يا ألف جرح : دعى قلبى فإن به من التمزق ما لم يحتمل ملأ
أوذيت عمرى،وما آذيت من هدموا مدينة الحب،ما آذيت من صبأوا
ولا رغبت عن الإيمان أزرعه حديقة، من زهور الحب تمتلئ

" فالحديث عن النبع والكلأ ، والجيش الذى يعدو وينكفئ . واحتمال الرجل الفرد ما يتجاوزاحتمال الملأ ، هى طريقة تراثية فى التغنى باقتدار الذات وصمودها . وقد نشتم رائحة نزار قبانى فى إشارته إلى من هدموا مدينة الحب

ومن صبأوا" .[٢] وقد استطاع يس الفيل أن يعبر عن نفسه وعما يحيط حوله بالطريقة التى يرتاح لها ، فتطورت الصورة تبعا لذلك مع تطور المنهج والموضوع وسنجده فى كثير من قصائده يأتى بتشكيل جديد للصورة يشع حداثة وجمالا كما فى قوله : [١]

وعيناك مهما تغيبان عنى ... هما الأمن لى ، وبقايا الرجاء
أراك ... ونورهما يحتوينى ... صباحا ...إذا التف حولى مساء
وكرما من الحب لا لن يزول ... وإن فيه عريد جيش الوباء
وجدول ماء يذوب اشتياقا ... ليمنحنى شهده فى سخاء

فالصورة المثالية القديمة التى كان يميل إليها الشعراء قبل ذلك فى تصويرهم للعين ، هى العين الواسعة الحوراء ، ولكنها اختفت وحلت محلها هذه الصورة الجديدة ، فجمال عين المحبوبة ليس شكلا جامدا ولكنه متجدد بشكل دائم متغير ، تتولد منه مع كل نظرة صورة جديدة لا تتكرر مع سابقتها .

ملامح الصورة :

أول ما نلحظه على الصورة عند يس الفيل أن معظم صورة جزئية ليس فيها تركيب أو توليد فهى بسيطة التشكيل ، سهلة الفهم ، بعيدة عن التعقيد والتغريب والغموض ، مثال ذلك قصيدة "للحب" : [١]

دعنى :
أنقطر شهدا
فى شفة لم تعرف يوما

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٧ ، ٨.
٢ - السابق ، ص ١٤٣ .
٣ - السابق ، ص ٦٤،٦٣ .

كيف تحب

دعـنى :

فلعلى حين أفجر

كل سدود الكره

وكل تلال الحقد

وكل جبال الظلمة

فى الأعماق

دعنى :

فلعل الكره

النابت فى الأحداق

ينضو عن شفة الليل

ثياب الحقد

لعل الكره

إذا ما ذاق الحب

يحب

فهذه القصيدة تعبرعن معنى نبيل ، وهو الحب الإنسانى بمعناه العام البعيد عن الحسية والشهوانية ،وقدامتلأت القصيدة بالصورالجزئيةالبسيطة المؤثرة والمعبرة كقوله: أتقطر شهدا ،سدود الكره ،تلال الحقد ،جبال الظلمة ،الكره النابت فى الأحداق ، شفة الليل ، ثياب الحقد . وفى شعر يس الفيل كثيراً ما نلتقى بجزئيات الصورالبالغة الدقة ،كقوله معبراعن مدى حبه وعشقه لوطنه: "[1]

يكاد على يديك يذيبنى شجنى

---

١ - توقيعات حادة على الناى القديم ص ١٥٤.

تكاد تذوب أو تارى مواويلا

أكاد أصير قنديلا

بساطا عسجدى اللون فى دربك

وشاحا من ضياء الشمس

زنبقة على صدرك

فهذا المقطع من قصيدة " الحب فى زمن الكراهية " يصور الانصهار والذوبان فى ذرات المحبوبة الوطن ؛ حيث تتحول حنايا جسده وأوتاره إلى أغنيات محبة وغزل ، ثم يوشك أن يغدو قنديلاً يضئ ، وبساطاً ذهبياً يفرش دربها ووردة على صدرها .ونراه يصف الرجاء بأنه حمام أبيض منطلق من الأبراج فيعطينا وضوحاً فى الرؤية حيث يقول : (١)

وينطلق الرجاء حمائماً بيضاً من الأبراج

كما نجده يضفى على الصور القديمة حيوية رائعة فيجعلها جديدة تماماً كما فى قوله :(٢)

لأكاد من النجوم أصوغ آيات لمحرابك

وقوله : (٣)

ولأنسج من خيوط الفجر أثوابا لعافيتك

وعلى الرغم من هذا الصور الجيدة ، تقابلنا بعض الصور المبتذلة التى لم تستوى عناصر جمالها الفنى كقوله : (٣)

إن انتزاع الهوى من مهجة عشقت أقسى مدى من نزع أضراس

---

١ ـ المصدر السابق ، ص١٥٥ .
٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٥ .
٣ ـ المصدر السابق ، ص١٥٥.

فالتناقض واضح فى الصورة ، فليس هناك علاقة بين انتزاع الهوى من قلب عاشق وبين نزع الأضراس ، فإن كان يقصد المعاناة والألم فلم يوفق فى ذلك لعدم وجود توازن بين الطرفين .

وسائل تشكيل الصورة :

إذا كان يس الفيل قد استخدم الوسائل التقليدية فى تشكيل صوره فهناك الكثير من الصور التى اعتمد فى تشكيلها على الوسائل الحديثة مثل : التشخيص ، تراسل الحواس ، ومزج المتناقضات .

١- التشخيص :

"على الرغم من أن التشخيص وسيلة فنية عرفها شعرنا القديم فإنها لم تشع فيه شيوع الوسائل التقليدية المعروفة ،ولكن هذه الوسيلة شاعت شيوعاً كبيراً فى انتاج الشعراء الجدد" . (١)

والتشخيص هو :"منح الحياة الإنسانية لما ليس بإنسان" . (٢) وقد استغله يس الفيل استغلالا موفقاً حيث استطاع أن يجسد المشاعر والأحاسيس والمعانى التجريدية. (٣) فالحزن – مثلاً – فى قصيدة "السقوط فى براثن العشق" يطارد الفرح . وفى قصيدة " أيوب " (٤) نجد الحزن يمتد وينقض وينتزع البسمة من الشفاه ، ويبدو حزناً مخنوقاً ، وفى " إنما الأحلام أحلى" (٥) نرى المدى يعزف ألحان الجنائز ،وفى "الصراخ فى الوديان الحجرية" (٦) يهتز أشواقاً ولا يكتفى

---

١ - قصائد جريحة ، ص ٥٨ .
٢ - مجلة فصول ،المجلد الثانى ، العدد الأول أكتوبر،ص٨٧.
٣ - د : أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث فى مصر ،دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣ ص٣٣٢.
٤ - أغنية بلا وطن ،ص ٦١ .
٥ - همسات الصدى ، ص١ .
٦ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١٣ .

الشاعر بخلع الصفات الإنسانية على المعنويات . وإنما تجاوزها إلى المجردات من ذلك قوله [1]:

أقبل الليل ..فنامي
قد ألفناه صديقا يتدلل
يزرع الأحلام ،
فينا
يتغزل
كلما هلّ
وهلت حوله الأطياف
لم نعرف
سوي أنا من الأحلام ننهل

فالليل – وهو معني تجريدي – لا يجسمه الشاعر فحسب ، ولا يخلع عليه الحياة فقط ، وإنما يمنحه حياة إنسانية ويشخصه ، فنري الليل وهو يقبل ويتدلل ويتغزل .

٢ - تراسل الحواس :

ويعني "وصف مدركات كل حاسة من الحواس بصفات مدركات الحاسة الأخري ، فتعطي المسموعات ألوانا ، وتصير المشمومات أنغاما وتصبح المرئيات عاطرة " . [2] وهذه الخاصية منتشرة في شعر يس الفيل ، فنجده يستخدم تعابير مثل : الحنان الأبيض ، والعطر الناعم ، والنغم الأخضر ، والبسمة البيضاء والشقاء المر .

---

١ - أغنية بلا وطن ،ص٤١ .
٢ - د . محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث ، ص ٤١٨ .

"فالألوان والأصوات والعطور تنبعث من مجال وجداني واحد . فنقل صفات بعضها إلي بعض يساعد علي نقل الأثر النفسي ... وبذا تكمل أداة التعبير بنفوذها إلي نقل الأحاسيس الدقيقة" . (١)

وتكتسب العيون عند يس الفيل أبعادا عميقة بسبب إحالتها إلي مدرك آخر وهو حاسة الذوق . فتكتسب صفات المذوقات المسكرة كما في قوله : (٢)

ولم أك ذقت رحيق العيون ولا مسني الحب يا ديمونه
وأشرق وجهك بالكبرياء وقد أسكرتني العيون الكحيله

وعندما يريد أن يعبر عن ضيقه مما يراه في بعض الناس الذين يتدثرون بسيمات الصلاح . ويلبسون مسوح التقاة النقاة وهم منافقون ومفسدون يصفهم بقوله : (٣)

أكاد مما أري في الناس أرتاب فبعضهم جاهل والبعض كذاب
وبعضهم أملس الوجدان تحسبه يفضي إليك بنصح وهو يغتاب

فقد وصف هذا البعض بقوله " أملس الوجدان " لينفي عنه نقاء الإحساس وصفاء الوجدان . والتراسل يعد سبيلا من سبل توسيع اللغة وإثرائها ومرونتها وحيوية تعبيرها وتجديدها . وهو من الناحية الفنية وسيلة إلي نقل الحالة النفسية بدقة أكثر ورهافة أشد ، حيث يكون اللفظ المنقول أدق تعبيرا وأرهف أداء في حالة نفسية معينه ، لارتباطه بموقف يتلازم فيه شيئان أو لوحدة الأثر النفسي بين الشئ المنقول له اللفظ والشئ المنقول منه" . (٤)

---

١ - المصدر السابق ، ص ٤١٨، ٤١٩ .
٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٢٩.
٣ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٢٠ .
٤ - د. أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر ، ص ٣٣٢ .

ومصدر هذه الوسيلة – تراسل الحواس – هو التأثر بالشعراء الرمزيين فقد استخدموا هذه الوسيلة كثيرا فى أشعارهم . ومن الشعراء الذين أكثروا من هذه الظاهرة في أشعارهم وبرعوا في استخدامها محمد عبد المعطي الهمشري ، وإبراهيم ناجي ، وعلي محمود طه ، وصلاح عبد الصبور. من هنا جاء تأثر يس الفيل بهؤلاء الشعراء عن طريق اتصاله بشعرهم .

٣- مزج المتناقضات :

من وسائل تشكيل الصورة عند يس الفيل ما يسمي بمزج المتناقضات حيث يعانق الشئ نقيضه "ويمزج به مستمدا منه بعض خصائصه ومضيفاً عليه بعض سماته ، تعبيرا عن الدلالات النفسيه والأحاسيس الغامضة المبهمه التي تتعانق فيها المشاعر المتضادة وتتفاعل" .[١] مثال ذلك قوله : [٢]

وعشت بين حديث الصمت منتظرا والصمت يغري وكم بالصمت أغراني

وقوله : [٣]

إن يعصف الصمت أعواما بأوتاري فلن يكفن- مهما طال- قيثاري

وقوله : [٤]

وفي إغفاءة يقظي ولحن الحق يشجيه

وقوله :

وأنك غير ما أملت

نهر مالح وضباب

---

١ - د. علي عشري زايد : عن بناء القصيدة العربية الحديثه ، دار مرجان للطباعة ، نشر مكتبه دار العلوم ، القاهرة الطبعة الأولي ١٩٧٨ ، ص ٨٤ .

٢ - أغنية بلا وطن ، ص ١٣ .

٣ - المصدر السابق ، ص ٢٥ .

٤ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١٩ " مخطوط " .

في الصورة الأولي مزج بين الصمت والحديث وهو مضاد له ، والصمت في الثانية يستحيل إلي حركة لإسناده إلي الفعل يعصف .

وفي الصورة الثالثة يمزج بين الإغفاءة واليقظة ، فالإغفاءة هنا ليست إغفاءة سالبة وإنما هي إغفاءة موجبة .

وفي الصورة الأخيرة يمزج بين شيئين متناقضين هما العذوبه والملوحة المتمثلة في قوله "نهر مالح" ، فقد جمع خيال الشاعر بين شيئين لا يجتمعان في الواقع والطبيعة . وتظهر القيمة الأسلوبيه للمزاوجة في الصور السابقة في تعميق الإحساس بالمعني عن طريق الجمع بين العناصر المتضادة ، فالنهر مثلا لا يرمز للنيل باعتباره مجري مائيا ، وإنما هو يقترب من قضية المعاناة التي يعانيها في حبه لبلاده ، والشاعر بهذا يتجاوز المعني المباشر إلي عمق المعني .

ومن الوسائل التي استخدمها يس الفيل في شعره ووظفها توظيفاً فنياً ناجحاً في معظم الحالات الرمز ، والذي لا شك فيه أن توظيف الرمز في الشعر يثري القصيدة ، ويجعلها أكثر تأثيرا في نفس المتلقي ، لأن الرمز من الممكن أن تكون له أكثر من وظيفه عند استخدامه ، وفي المقابل قد يكون الرمز عبئا علي القصيدة فيصيبها بالغموض ، وقد يكون توظيفه سطحيا لا يخدم العمل الفني ولنقترب من عالم يس الفيل الشعري لنري كيفية استخدامه للرمز .

الرمز :

"الرمز بمفهومه الشامل ، هو ما يمكن أن يحل محل شئ آخر في الدلالة عليه ، لابطريقة المطابقة التامة ، وإنما بالإيحاء أو بوجود علاقة عرضية أو علاقة متعارف عليها" . (١)

"والرمز إحدي الوسائل التي تكبح جماح العواطف المباشرة ليعاد إنتاجها في صيغة أكثر موضوعية" . (٢)

وقد استعان يس الفيل بالرمز اللفظي ليصور من خلاله أفكاره ومشاعره وليبتعد كذلك عن الإسلوب التقريري المباشر ، وليتمكن من استبطان المعاني التي يريد التعبير عنها .

والمقصود بالرمز اللفظي " انصراف اللفظ إلي معني مرتبط بتجربة معينة أو بحالة نفسيه واعية أو لاواعية ، ليس منفصلا عن أطر الدلالة اللغوية للفظ" . (٣)

ولتوضيح ما ورد في هذا التعريف نأخذ بعض الكلمات لنري مدلولها اللغوي والمعني الدلالي الذي أراد الشاعر أن ينقله لنا كما يريد ، فكلمة "شجرة" مثلاً مدلولها اللغوي يعني ما قام علي ساق من نبات ، وهذا المعني ليس هو بالضرورة المعني الدلالي للكلمة في قصيدته " الشجرة " التي يقول في مطلعها : (٤)

.. وتحت الغصون التقينا .. زمانا
قرأنا ، كتبنا ، جلسنا ، لعبنا
تجودين بالثمر المستحب
إذا ما رغبنا

---

١ - يراجع مقال : ظاهرة الغموض في الشعر الحر ، خالد سليمان ، مجلة فصول : المجلد السابع ، العددان: الأول والثاني ، أكتوبر ١٩٨٦، ومارس ١٩٨٧ ، ص ٧٠ .
٢ - د. أحمد عبد الحي : شعر صلاح عبد الصبور الغنائي – الموقف والأداة – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨ ص ٢٨٩ .
٣ - مجلة فصول ، عدد أكتوبر ١٩٨٦، ص ٧٧ .
٤ - أغنية بلا وطن ،ص ١٣ .

وفي الظل نغفو إذا ما تعبنا

ونصحو علي وشوشات النسيم

تداعب أوراقك الخضر

تهفو الطيور التي في الفضاء

إلي العش

نقذفها بالنبال

تظل تحوم

لا تستقر من الخوف

إلا .. إذا نحن عنها – مع الليل – غبنا

فهذه السطور توهم أن المقصود بالشجرة هنا هي الشجرة المتعارف عليها بدليل الغصون ، والثمر والظل والأوراق الخضر ، ولكن بعد أن نسير مع القصيدة عدة أسطر أخري نجده يقول : [1]

إذا ما كبرت أمد إليها يدا حانيه

شرايين قلبي تقطر تحت الجذور الدما

أجود بما تشتهي ، لا أضن

مدي العمر أمنحها الحب

تظل ... ومهما تمر السنون

لنا واحة مشتهاه

.. وكل علي ربوة الحلم يخطو

يؤكد أنا لها .. ما حيينا

مدي العمر

من كل غدر نجاه

---

١ - المرجع السابق ، ص ١٣١

فقد انصرفت الدلالة إلي منحي آخر مختلف ، فالشجرة هنا هي مصر وهي شجرة مثمرة يعيش الشاعر علي خيرها ويرويها بدمه ، ولذلك يتوفر فيها عنصر الخصوبه والحياة .

وفي قصيدة " كلمات " يتحدث عن زعيم وطني آمن به الشعب فخذله يقول في مطلعها :[1]

دعوناه
إله العرش
ما عشنا عبدناه
وصلينا ه
ياربي
وصمناه
وأرخصنا له الأرواح
بالغالي فديناه
وسرنا نقطع الأيام
ما عشنا
لدنياه
ولكنا ... فجعنا فيه

ثم يرمز للعدو الذي جرعنا مرارة الهزيمة بالطوفان ، ولهذا الزعيم بالطاغوت قائلاً : [2]

وعند تمرد الطوفان

---

١ - توقيعات حادة علي الناي القديم ، ص ٥٣.
٢ - المصدر السابق ، ص ٥٤.

لم يشرع سفينته

ليحملنا

ومات المؤمنون به

ملايينا

ملايينا

طواهم ذلك الطوفان ياربي

بأرض التيه قد ضلوا

ملايينا

ثم يقول : [1]

فأنت

ولا سواك

لنا

يخلصنا من الطوفان

مهما أغرق الدنيا

ومن طاغوتنا الأعمي ..

فإنك مرسل الطوفان

يا ربي

وإنك خالق الطاغوت

يا ربي

وقد عدنا

وقد تبنا

---

١ - المصدر السابق ، ص ٥٦.

فهذه القصيدة كتبت في نوفمبر١٩٦٨م ، من هنا حاول الشاعر أن يتخفي وراء بعض الكلمات ليستطيع أن يعبر عن آرائه بحرية .

ومن القصائد التي تجمع بين البساطة والعمق والصور الفنية الموحية التي لا تجنح إلي الغموض قصيدة " الزحف علي حد المستحيل " ، التي كتبها الشاعر لمؤازرة الشعب الفلسطيني في نضاله ضد العدو الصهيوني ، فنجد فيها هذا الرمز الشفيف الذي يصور أطفال فلسطين بالعصافير الثائرة ، وقد بدأ القصيدة بتقديم للرمز يوضح بعض جوانبه : (١)

شاخت الغربان وانقضت علي الغدر البلابل
أحرق الغيظ السلاسل
والعصافير استمانت
لم تخف عصف القنابل
ربما يسأل سائل
كيف ؟ من أين ؟ لماذا ؟ ومتي ؟
كانت علي الأرض العصافير تقاتل .

فالرمز هنا واضح ويزيده الشاعر وضوحا بما يصوره في السطور التالية وبما يخلعه علي العصافير / الأطفال من قوة . وقد وفق يس الفيل في اختياره لهذا الرمز ، حيث تتميز العصافير بالمرح والوداعة وكذلك الأطفال ، ولكن عندما يعتدي عليها وتستلب حقوقها تنقلب العصافير / الأطفال الوديعة إلي مصدر شر وعذاب ، فتضحي وكأنها طير أبابيل ترجم العدو بالحجارة ، فتحني رأسه المتكبر وتفل قواه الغاشمة : (٢)

---

١ - الزحف علي حد المستحيل ، ص ٦٤.
٢ - المصدر السابق ، ص ٦٥ .

يا عصافير مثاره

جمعوا الآلام صبوها لهيبا في المراجل

لم يعد يبرم هذا القدر أمرا

الأبابيل التي انقضت

ومدت

ألف منقار إليه أذهلته

وأطارت عالما كم عاش ينمو في يديه

فجأة لم يدر كيف انهارت الآمال

وانهار الذي شيده فيها لديه

الرمز الأسطوري أو الحكائي :

استخدم يس الفيل الأسلوب الرمزي الذي يعتمد إلي حد كبير علي التعبير الأسطوري أو الحكائي كما في قصيدته " شمشون " . ولعله يستخدم شمشون رمزاً لعبد الناصر. فقد كتب هذه القصيدة عام ١٩٦٤ فالآمال كانت معقودة عليه وكان الشعب يعيش علي الأحلام والأماني : [١]

ولنطلق المارد يتحدي

يتحدي جدران التقمقم

يتحدي سجانا أعمي

ودخانا طوف

ما أعمي

ما قيد عزم البركان

ما قيد غير السجان

---

١ - توقيعات حادة علي الناي القديم ، ص ١١.

ما هد إرادات عاشت

وسحائب وهم مخموره

لم تقتل ألوان الصوره

وفي عام ١٩٧٠ يكتب الشاعر قصيدة " شهرزاد وحكايا لا تزال " فشهرزاد هنا هي مصر، فعلي الرغم من سيادة النظرة التشاؤمية في تلك الفترة والإحساس بخيبة الأمل والحزن العميق إلا أن الشاعر لم يستسلم لهذه النظرة ، فجاءت صورة مشرقة بالأمل، ولم يفقد أمله في ميلاد جديد لمصر كما عاشت شهرزاد ولم تقتل:[١]

أيا شهر زاد

أيا قصة كل يوم تعاد

مضت ألف ليله

مضي ألف عام

وصوتك يترع سمع النيام

يمزق بالليل صمت القبور

يشب لظي في حنايا الهشيم

ويحرق في الصبح ثوب الظلام

ويقتلع اليأس أني يراه

ويمضي

يعيد الخوارق والمعجزات

يعيد الأساطير حينا

وحينا

يعيد الحياه

---

١ ـ المصدر السابق ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

ويبذر فوق رفات القنوط بذور الأمل

ويروي الثري بدم الكبرياء

ويمضي

يبعثر فوق دروب الفداء بذور الجهاد

واستخدام يس الفيل للرمز إما أن يكون شاملا لكل جزئيات العمل الفني بحيث يمثل بناء متكاملا يستغل كل امكانياته في التعبير كإطار عام في القصيدة كما ورد في القصائد السابقة التي استشهدت بمقاطع منها ،وفي بعض القصائد السابقة التي استشهدت بمقاطع منها وفي بعض القصائد الأخري جاء الرمز جزئياً يكمن في لفظة أو عنصر ضمن عناصر متعددة فبدا وكأنه ملصق بالقصيدة لا جزءاً من معمارها الداخلي .

وفي قصيدة " نيرون ورحلة الجنون " وردت مجموعة من الرموز مثل نيرون والحجاج وفرعون ، وهي جميعا لحاكم العراق الذي يمثل وجه الظلم البشع بعد اعتدائه علي دولة عربية شقيقه ، وعندما يكون الرمز جزئيا يسمح بالرموز المتعددة كما ورد في هذه القصيدة يقول : (١)

لكن نيرون لم يعصف سوي باخ كأن ما هو فيه ليس يكفيه

ويقول : (٢)

رفقا بنا أيها الحجاج .... أن لنا فيما اقترفت نصيبا ،كيف تخفيه

ويقول :(٣)

فانعم بغدرك يا فرعون في زمن لن تستقر علي حال ثوانيه

---

١ - الإبحار علي سفن اليقين ، ص ٢١.
٢ - السابق ، ص ٢٢.
٣ - السابق ، ص ٢٣.

وفي قصيدة " الطوفان والمرافئ الهزيلة " نري هذا الاستخدام الجزئي لكل من عبس وذبيان ونبي الله نوح : (١)

وفي قصيدة " أحزان الفجر" يستخدم قابيل رامزاً به للظلم الذي ألحقه بأخيه هابيل : (٢)

قابيل لا تزدرد هابيل...وامض إلي من أهدروا دمنا جهرا وما استتروا

فالشاعر استغل بعض الصفات الموجودة في الرموز التي ذكرها ، حيث تفيد كلها معاني الظلم والاعتداء ولكن ليس لها وجود مؤثر فعال في التعبير عن الحدث المستخدم له ، ومن ثم جاء توظيفها هنا سطحياً .

توظيف الموروث :

استفاد يس الفيل من التراث الإسلامي والشعبي وكان القرآن الكريم من أبرز ما اعتمد عليه في هذا السياق ، حيث لجأ إلي تضمين قصائده بعض آيات من القرآن الكريم ، وقد يلجأ إلي استخدام قصة من قصصه فيوظفها فنياً لخدمة عمله الشعري .

الأخذ من القرآن الكريم :

" لاشك أن الحس الديني بمخزونه من الخطاب القرآني والنبوي كان وراء ظواهر الاقتباس التي ازدحم بها الخطاب الشعري الحديث علي وجه العموم بوصف الخطابين القرآني والنبوي مادة ثرية بمجموعة القيم والرموز الإنسانية التي يتكئ عليها المبدعون في انتاج معانيهم" . (٣)

١- السابق ، ص ٢٧ .

٢ - السابق ، ص ٣٣ .

٣ - د. محمد عبد المطلب : قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥ ، ص ١٥ ، ١٦ .

ومن الطبعي أن يتأثر يس الفيل بالقرآن الكريم ، فقد شكل لديه منبعاً ثرا حيث نشأ في الريف ، "وكانت القرية حتي عصرنا تعلم الطفل القرآن الكريم فيتحرك لسانه أول ما يتحرك بترديد تلك الآية التي هي الغاية في الفصاحة والبلاغة" .[1] وفي معرض حديثه عمن تأثر بهم ،يقول عن تأثره بالقرآن الكريم "ثم أضع علي رأس القائمه دائما كتاب الله الخالد القرآن الكريم ، الذي حفظته صغيراً في كتاب سيدنا ،والذي أتفيأ ظلاله كلما أدمي روحي جفاف الروض أو عصفت بقلبي رياح الزمن الذي سيظل ما حييت تميمتي ونبراسي علي الطريق الطويل" .[2] من هنا كان اعتماده علي القرآن فوظف بعض قصصه توظيفاً فنياً كقصة نبي الله يونس عليه السلام ، وذلك في قصيدة "يونس والطريق إلي الجنة" حيث قارن بين قصة يونس كما جاءت في سورتي " الصافات ، والقلم" وبين يونس هذا العصر. ويس الفيل يستوعب هذه القصة ويستوحي معالمها ويقول شعراً متضمناً ما جاء فيها: [3]

مثلما يونس عاد
من غيابات الظلام السرمدي
عاد للشاطئ يونس
بعد يأس قاتم الأبعاد عاد
بعد أن ألقوا به للموج حيا
ولحتواه الحوت صيدا عالميا
عاد إنسانا سويا

---

١ - د. عبد الله مرور: الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١٢٨ .
٢ - د. محمد هداره :من فرسان الشعر بالديم غرب الدلتا الثقافي ، ص ٢٦ .
٣ - الميلاد وحكايات الخريف ص ٨٦ .

فقد تعرض يونس عليه السلام لمحنة عظيمة ولكنه لم يمت بل : [1]

عاش في المحنة ذكرا

عاش في الظلمة تسبيحا وشكرا

عاش نبضا منطقيا

بعد أن ألقوا به للموج حيا

فليس غرض الشاعر هنا أن يعيد صياغة هذه القصة شعرا ، وإنما الذي يعنيه " أن يتكرر نموذج يونس الأول لينقذ الناس من الجاهلية الجديدة ،ويصبر علي آداء مهمته ..... أما يونس الثاني ، يونس هذا العصر، فهو أمنية الشاعر ليكون مصلحاً ينقذ العاصين من يوم يشيب الطفل فيه ، ويرجع الشارد للصف ويجتاح اعتزازاً جاهلياً" : [2] يقول: [3]

آه يا يونس هذا العصر

ما أحراك أن تغدو نبيا

ترجع الشارد للصف

وتجتاح اعتزازا جاهليا

ويعتمد يس الفيل في بناء قصيدة " يوسف والأمل الذي لم يمت " علي قصة يوسف عليه السلام ومعاناته وآلامه في ظلام البئر ، ولعله يستدعي شخصية يوسف للشعب المصري الذي عاني مرارة الهزيمة ، أو الزعيم الذي تحمل ضغوطاً شديدة حتي أحرز المصريون النصر في ١٩٧٣ م . يقول في تقديمه لهذه القصيدة " إليه وقد استلهم روح الصديق في نضاله وصموده : [4]

---

١ - المصدر السابق ص ٨٧ .

٢ - أنظر مقال (قراءة في ديوان "ميلاد وحكايات الخريف) للدكتور حلمي القاعود ، ص ٣٠

٣ - الميلاد وحكايات الخريف، ص ٨٧ .

٤ - الميلاد وحكايات الخريف ،ص ١٦.

علـــي أناتـــه ســـكروا وقـــاع البنـــر يطويـــه
وليـــل الجـــب مفتـــرس إذا مـــا قـــام يطويـــه
ورعـــب اللحظـــة الخرســـا ء فـــي الأعمـــاق يرديـــه
وألـــف تخـــوف أعمـــي إلـــي الصـــحراء ينعيـــه
وأشبـــاح مولولـــة تميـــت الآه فـــي فيـــه
تصـــب علـــي جوانحـــه لظـــي فـــي المـــاء – يشـــويه
ويمضـــي فـــي تفرعـــه بقلب فيـــه مـــا فيـــه
وفـــي ســـكراته الحيـــري يـــري مـــا ليـــس يدريـــه
ويشـــعر أن روحـــا مـــا علـــي الإصـــرار تبقيـــه
فيســـبح رغـــم أن المـــو ج للأعمـــاق يدنيـــه
ويلـــمح فـــي ظـــلام الجـــب نـــور الله يأتيـــه

علي أن أوضح صدي للقرآن الكريم في شعر يس الفيل يبدو في بعض الكلمات أو العبارات القرآنية التي استعان بمضمونها وجعلها جزءا من نسيج قصائده كقوله : (١)

ولكن الذي ندريه
أن إمامنا قد عاد شيطانا
علينا يرسل الإعصار
يدمينا
ويطعمنا
ويسقينا
لهيبا – أنت تعلمه – وغسلينا

١ - توقيعات حادة على الناي القديم ، ص ٥٥ .

فهذه السطور صدي لقوله تعالي ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحاقة:٣٦]

وعندما يقول : (١)

هنـــــــــــا

أدركوا

أنه لا نجاة من الله

إلا إليه

فإنه يستفيد بطريقة مباشرة من قوله تعالي ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة التوبة:١١٨]

أما قوله : (٢)

فســـر علـــي الأرض هونـــا واعـــزف نشـــيد الســـلام

فمأخوذ من قوله تعالي : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الفرقان:٦٣]

توظيف التراث الشعبي :

" إن توجه الشاعر المعاصر إلي واقعه وإخلاصه له لاينفصل عن التقاطه لأشكال التراث الشعبي ، ثم توظيفه لها في نسيج عمله الإبداعي ، فإن هذا من شأنه أن يضفي سمة الواقعية علي شعره كما يسهم في دعم الجسر الذي يصل المبدع بمتلقيه ، وذلك حين يثير المكنون في وجدانهم من ألوان هذا التراث ، سواء أكانت أسطورة أم حكاية أم شعراً أم مثلاً أم عادات ومعتقدات .(٣)

---

١ - علي صدا التكريات ، ص ٥٥ .

٢ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٥٣.

٣ - د. أحمد عبد الحي : شعر صلاح عبد الصبور الغنائي ، ص ٣٠٩ .

ويس الفيل واحد من الشعراء الذين استخدموا بعض التعبيرات الشعبيّة في شعرهم وذلك علي نحو ما نجده في التعبير الشعبي " أنا فاض بيه الكيل " فيقول عن علاقته بأصدقائه وقد امتلأ هما بسبب ما لاقاه منهم من جحود ونكران . (١)

وفاض الكيل بـي ممـا ألاقـي وبت مـن الأحبـة مسـتجيرا

ومـن التعـبيرات الشـعبية قـولهم " قلبي معـاك " والـذي يقـال عـادة لمـن لا يسـتطيع أن يـدفع ضـرا أو يـرد كيـداً لحـق بغـيره ، وفي هـذه الحالـة لا يملـك إلا الكلمـات والـدعوات فيقـول لشـعراء فلسـطين يعتـذر عـن عجـزه عـن مناصـرتهم ومؤازرتهم . (٢)

شعراء الأرض المحتله
قلبي معكم
روحي
عصف جروحي
في المنفي
خلف القضبان
قلبي معكم
ما أروعكم

وفي قصيدة " مرثية إنسان لم يمت " يقول: (٣)

لا أملك إلا الكلمات
إلا كلمات يفني المال ولاتفني
لا أملك إلا الدعوات

---

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ١١٩ .
٢ - توقيعات حادة علي الناي القديم ، ص ٨٨ .
٣ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٤٤ .

تسكبها في الليل جروحي

وتجود ، تجود بها روحي

لك يا إنسان

وقد تستثير الشاعر بعض العادات الشعبية . وذلك كإشعال البخور عند إلاصابه بنظرة الحسد. (١)

كأنما أنا ما أطلقت أبخرة ولا استعنت له من نظرة الحسد

ومن العادات التي كانت شائعة في الريف المصري حتي وقت قريب ، دق الطبول المصحوبه بالغناء عندما تحدث ظاهرة " خسوف القمر " وهي وإن كانت ظاهرة طبيعية تحدث عندما تقع الأرض بين الشمس والقمر فتحجب ضوئه إلا أن الناس كانوا يعتقدون أن طبولهم وأغانيهم هما السبب وراء ظهور القمر بعد اختفائه ، فيستدعي هذه العادة لينقل لنا أثر الصدمة التي واجهها الشعب المصري بعد هزيمة ١٩٦٧م ، مشبها الحاكم بالقمر الذي اختفي ولكنه في هذه الحالة لن يعود مرة ثانية كما كان مشرقا ومتألقاً . (٢)

وبعد ما ترنح القمر

لا تقرعوا طبولكم

لا تنشدوه لحنكم

لأنه

لأنه انتحر

١- الزحف علي حد المستحيل ص ٨٩

٢- توقيعات حادة علي الناي القديم ، ص ٥٧

ونجده كذلك يستعير من التعبير الشعبي مقولة " راح اللي راح " فيأتي بصيغة قريبه منها وهي فات ما فات وتقال عند عدم الاهتمام بما مضي ووجوب الالتفات لما هو آت. (١)

فات ما فات ... فاهدئي أو تمادي فجراحي ما أصبحت عاريـــات

بعد العرض السابق للصور الشعرية عند يس الفيل يتضح كثرة استخدامه للصور في شعره من ناحية ، وبساطة هذه الصور من ناحية أخري ، وهذا ما جعل شعره يتسم بالسهولة والوضوح . وشاعرنا يعتمد علي الصور الجزئية إلي حد كبير في معظم شعره ، وكان اعتماده علي الصور الاستعارية أكثر من اعتمادة علي التشبيه ، ومن ثم وجدناه يميل إلي التجسيد والتشخيص وتراسل الحواس ثم تطورت الصورة عنده وأصبحت رمزا سواء كان رمزا لفظيا أو رمزاً تاريخياً .

١ - الميلاد وحكايات الخريف ، ص ٢٥ .